

الفصل الرابع

نظرية المعرفة

كثيراً ما تعرف الفلسفة بأنها نظرية «الكون والمعرفة»، فعلم ما بعد الطبيعة يبحث في حقيقة الكون وأصله، أما ما يبحث في المعرفة نفسها (العلم بالشيء)؛ أعني حقيقتها ومنبعها وحدودها التي تقف عندها، فيكون فرعاً آخر من الفلسفة يسمى «نظرية المعرفة» أو «إبستمولوجيا». وقد وَجَّه فلاسفة اليونان الأولون نظرهم للبحث في حقائق الأشياء وطبائعها، وهذا التفلسف والنظر الذي يفوق أنظار السذج والعامّة وآراءهم تدرج بالمفكرين الذين يبحثون عن الحقائق إلى البحث في مسألة أخرى؛ وهي: لماذا يختلف نظري إلى الأشياء عن أنظار غيري من الناس؟ ولماذا تختلف نظرياتى المبنية على البحث عن الأفكار الشائعة بين العامة؟ إنني أعرف أن الناس على باطل وأنا على حق، وأن هناك عالماً من الأشياء خارجاً عني يعرفه عقلي، فكيف تدخل المعرفة بهذه الأشياء في عقلي فتثير أفكاراً تولد عالماً من الأشياء في داخله؟ كيف حصلت هذه المعرفة؟ ولم يفكر الناس على خلاف ما أفكر؟ أين منبع الحقيقة التي حصلتها؟ أين أصل المعرفة وحدودها التي تقف عندها؟ وما حقيقتها وطبيعتها؟ هذه الأبحاث أدت إلى الشك في صحة المعرفة وفي الوثوق بها، وجاش في النفس هذا السؤال: هل يمكن بحال أن نعرف الحقيقة، وأن نجد مقياساً صحيحاً عامّاً نقيس به الأشياء لنعرف صحيحها من باطلها؟ قد كان العقل البشري في أول الأمر يميل إلى العمل والسير في الحياة من غير أن يسأل نفسه سؤالاً كهذا، حتى إذا وقع في الخطأ ورأى آراء تناقض آراءه اعتراه الشك ولم يعد يثق بما يرى، وبعد أن كان الفكر يشتغل بالأشياء الخارجية توجه للبحث في نفسه هو، باحثاً عن نصيبه من الصحة فسأل: ما المعرفة؟ وما علاقتها بالحقيقة؟ هل المعرفة ممكنة؟ وهل يستطيع العقل البشري الوصول إليها؟ وإذا كان

كذلك فكيف الوصول؟ هذه أسئلة وأبحاث توجه إليها العقل الإنساني الشائق إلى أن يعرف، بعد أن بحث أبحاثه فيما بعد الطبيعة.

قال «بولسن»: إن الفلسفة ابتدأت في جميع أماكنها بالبحث فيما بعد الطبيعة، فكان البحث في شكل العالم وتكوّنه وأصله، وفي طبيعة الكون، وماهية الروح وعلاقتها بالبدن؛ هو موضوع الفلسفة الأولى، وبعد أن استغرقت هذه الأبحاث زمناً طويلاً اتجه الفكر للبحث في المعرفة وإمكانها، ورأى العقل البشري ضرورة النظر فيما إذا كان من الممكن بحال حل هذه المسائل، ومن هذا النظر نتجت «نظرية المعرفة»، من هذا يفهم أن البحث في صحة معرفة الأشياء وحدودها وعلاقتها بحقائق الأشياء هو موضوع ما يسمى نظرية المعرفة، أو إبستمولوجيا.

فيمكننا أن نجمل الغرض من نظرية المعرفة ومسائلهما في أسئلة ثلاثة هامة؛ وهي:

- (١) ما المعرفة؟ وهو سؤال عن نفس المعرفة.
- (٢) بِمَ أَحْصَلَّ المعرفة؟ وهو سؤال عن أصل المعرفة ومنبعها.
- (٣) هل يمكن تحصيل المعرفة؟ وهو سؤال عن صحة المعرفة وحدودها.

وقد أجاب العلماء عن هذه الأسئلة إجابات وردت ضمناً في تاريخ الفكر، وكانت مختلفة تبعاً للاختلاف في المذاهب الفلسفية، فذهب قوم من الفلاسفة إلى أن معرفة الأشياء نسخة طبق الأصل لحقائق أشياء، وصورة دقيقة في عقولنا لما في الخارج، وأن الأشياء في الحقيقة والواقع مطابقة لمظاهرها التي ندركها بواسطة القوى المدركة، وأن العالم الخارجي في الحقيقة كما ندركه، وهو مستقل في الوجود عن إدراكنا، وأن مظاهر الأشياء وحقائقها متطابقة، وإدراكنا للأشياء كما هي في الواقع هو المعرفة. وهذه العقيدة؛ أعني أن الأشياء المحققة لها وجود في الخارج مستقل عما يمثّلها في الذهن، تسمى «مذهب الواقع»، وهذا المذهب يرى أن ما ندركه بالحواس سواء كان إدراكاً يقينياً أو ظنياً، وما نعرفه بالتأمل بالفكر^١ — وهما اللذان بهما تحصل المعرفة بالأشياء — نتيجة شيء حقيقي موجود في الخارج مستقل عن ذهننا؛ فالمعرفة على هذا المذهب هي إدراك الأشياء كما هي في الواقع بواسطة آلات البدن والنفس، فالشيء أسود وأحمر لأن به صفة جعلته أسوداً أو أحمر، فإذا انعكس على أعيننا أدركنا سواده أو حمرة، وهذه الصفة موجودة محققة سواء انعكس الشيء على عين الإنسان أو لا، ويقابل هذا المذهب مذهب الظواهر أو مذهب المثال، وهو يرى أن «إدراك الأشياء»،

و«الأشياء في أنفسها»، وبعبارة أخرى «ما في الفكر» و«ما في الخارج» مختلف اختلافًا كبيرًا، وعلى هذا المذهب ليست المعرفة إدراك الأشياء كما هي في الواقع، ولا هي — كما يقول الواقعيون — نسخة طبق الأصل، ولا صورة دقيقة للأشياء نفسها، بل المعرفة إدراك الأشياء حسب ما يظهر لنا؛ إذ لا يمكن أن يكون بين المعرفة — التي هي عملية نفسية — والأشياء الخارجية تشابه، وليس العالم الذي حولنا إلا نتيجة أنتجها عقلنا، وكل ما نعرف من العالم والأشياء الخارجية سواء كان طريق المعرفة حواسنا أو تأملنا الفكري ليس إلا خيالًا يولده العقل، وبيننا يرى الواقعي «أن الإدراك بواسطة الحواس يحدث عندنا يقينًا بها، وأن في ذلك الإدراك ضمانة لحقائق الوجود؛ إذا بالمثالي يرى أن حقائق الوجود الخارجي ليست إلا قابليتها لأن تدرک».

أما السؤال الثاني؛ وأعني به السؤال عن أصل المعرفة ومنبعها، فقد أجيب عنه بجوابين: أما الحاسيون أو التجريبيون فقالوا: إن كل معرفة إنما سببها الإدراك بالحواس، وبعبارة أخرى إن منبع معرفتنا هو الإدراك الأول، أعني الإدراك بالحواس باطنة أو ظاهرة، فباجتماع هذه الإدراكات وتركيبها وإتقانها تحصل التجارب، وبجمع التجارب وترقيتها تحصل المعرفة، فمنبع المعرفة إذن عمل الحواس، أي «الإدراك بالحس» و«التجربة»، وهما يقابلان عند أصحاب النظرية الأخرى الآتي شرحها «التفكير» و«الفكر»^٢.

وعلى هذا المذهب تكون كل معرفة — ولو كانت فكرًا عميقًا أو «لِقَانَةً» — ترجع إلى الإدراك الحسي، فمذهب الحاسيين أو التجريبيين إذًا هو المذهب القائل بأن التجربة هي المنبع الوحيد للمعرفة، أو على الأقل أساسها، وأن كل معرفة تنبع من التجربة، والتجربة نوعان: فإما أن تكون مستقاة من الحواس الظاهرة، وإما من الباطنة، فإدراك الأشياء الخارجية يسمى إحساسًا، وإدراك الأشياء الباطنية يسمى تأملًا، والإدراك بنوعيه باب ينفذ منه ضوء المعرفة «إلى حجرة الفهم المظلمة».

قال «لوك» في رسالته (العقل البشري): «لنفرض أن العقل صحيفة بيضاء خالية من أية كتابة وأي معنى، فكيف استعدت لأن تتلقى ما يلقي إليها؟ ومن أين لها ذلك المستودع العظيم الذي نقشه عليها خيال الإنسان الواسع نقشًا متنوعًا إلى أنواع لا تحد؟ ومن أين لها كل مواد الفهم والمعرفة؟ عن كل هذه الأسئلة أجيب بكلمة واحدة وهي: «من التجربة»؛ فمنها استقيننا كل ما عرفنا، ومنها نستمد المعرفة؛ فملاحظتنا — سواء كانت ملاحظة محسوسات خارجية أو ملاحظة عمليات العقل الباطنية، وبعبارة

أخرى سواء أكانت إدراكًا بالحس الخارجي أو تأملًا فكريًا — هي التي تزود عقلنا بكل أدوات التفكير، ومن هذين البينوعين تنبع كل أفكارنا ... وكل أفكار يمكن أن تكون ... وهما — على ما أعرف — المنفذان اللذان ينفذ منهما الضوء إلى تلك الحجرة المظلمة؛ إذ يظهر لي أن العقل كحجرة صغيرة حرمت من كل النوافذ إلا فتحات صغيرة تدخل منها صور المحسوسات الخارجية أو الآراء المتعلقة بها». وقال: «لهذا كان أول مقدره للعقل هو أن يكون صالحًا للانفعال؛ إما بواسطة الحواس التي تدرك الأشياء الخارجية، وإما بالعمليات التي يعملها العقل عند التأمل في هذه الأشياء، وهذه أول خطوة يخطوها الإنسان لاستكشاف أي شيء، والأساس الذي تنبني عليه كل الآراء التي يحصلها في هذا العالم، فكل الأفكار الراقية الجليلة التي تفوق السحاب رفعة وتعلو علو السماء إنما أصلها الحواس، يسبح العقل مسافات بعيدة ويفكر ويتأمل تأملات رفيعة، وهو في كل هذا لا يخرج قيدَ ذرة عما أمدته به الحواس أو التأمل (الفصل الأول من الجزء الثاني)». من هذا يعلم أن الحاسيين أو التجريبيين يرون أن ما يمكن أن يجرب هو وحده الذي يمكن أن يعرف، وأن أداة المعرفة الصحيحة هو الإدراك بالحس، ومدركاتنا عند التجريبيين ناشئة من قوة الإدراك بالحس، أما قوة الفكر فقابلية في الغالب لما يرد عليها لا فاعلة. (انظر فلكنبرج ص ٢١٨).

ويعارض نظرية الحاسيين أو التجريبيين نظرية الذهنيين أو العقليين، وهؤلاء يقولون: إن التجربة التي تحصل بواسطة الحواس مضلة موهمة، وإن الحواس لخداعة كذابة مخطئة، فإذا كانت كل معارفنا بواسطة الإدراك بالحس فالمعرفة مستحيلة؛ ذلك لأن الإدراك والتجربة إنما يخبراننا بما يتعلق بحالة واحدة من أحوال الشيء، ولا يستطيعان أن يتناولوا كل الأحوال، فلو كان الأمر مقصورًا عليهما لما عرفنا حقيقة عامة، وإذ كان من الثابت أن المعرفة ممكنة وجب أن نقول: إن بعض المدركات التي تكون المعرفة ليس أساسها الحواس — ولأن تُعد الحواس عدوًّا للمعرفة الحقّة أقرب من أن تعدّ خادمة لها — وإن ما يظهر للعقل بواسطة الحواس إنما هو مظهر الأشياء الخارجي الخداع لا ماهيتها الحقّة التي لا تحس. (انظر فلكنبرج ص ٢١٩). فالمعرفة إذًا إنما تحصل بالفكر، وبالتفكير وحده يمكننا أن (نشرف على مملكة الظواهر المتغيرة)، وبيننا التجريبي يرى أن كل الحواس والتأمل منبع المعرفة إذا بالعقلي يرى أن التفهم والتعقل هو المنبع الوحيد للمعرفة، ويستدل العقليون بأن العلم والفلسفة يميلان إلى العموم والضرورة^٢ كما يظهر ذلك في العلوم الرياضية التي هي أهم مظهر للمعرفة

العلمية. والعلم والفلسفة لا يمكن أن يحصلا بالتجربة لأنها محدودة، وإنما يحصلان من طريق العقل الذي به الإدراك، وهو وحده المدرك، ثم كيف يفهم ما لا يحس؛ كالله والأبدية ومجموع العالم إذا نحن اعتبرنا التجربة لا العقل منبعاً لمعرفتنا وآرائنا؟ الحق أنه بواسطة التفكير المحض وحده يمكننا فهم حقائق الأشياء، وقد غلا بعضهم في معارضة التجريبيين «فذهب إلى أنه لا يصل شيء إلى النفس من الخارج، ولا يمكن للنفس أن تبتكر شيئاً إذا لم يكن من الأصل فيها».

إنما شغل العقليين والتجريبيين أنفسهم بمسألة المعرفة، فذهب الأولون إلى أنها تحصل بواسطة العقل المحض، وبه وحده يحصل العلم بالأشياء، أما بواسطة الإدراك بالحس فمستحيل أن يحصل ذلك، والتجريبيون ينكرون تحصيل المعرفة بالعقل المحض، ولكن لم يتعرض أحد المذهبين لمسألة إمكان المعرفة، فكلاهما وثق بالعقل البشري ثقة تامة واعتقد بقدرته على معرفة الأشياء.

ولكن لما كان هذا الموثوق بالعقل وبقدرته على تحصيل الحقائق قد تزلزل بنظرية التجريبيين؛ كانت النتيجة أن ضعفت الثقة بالعقل أولاً، وتلا ذلك تعريضه للنقد والامتحان، وظهرت هذه المسألة: هل تمكن المعرفة؟ وإذا أمكنت فإلى أي نقطة تمتد؟ وما حدودها؟ والعقليون والتجريبيون لم يبحثا في هذه المسألة، بل آمنا بأن لنا قدرة على معرفة الأشياء؛ إما بواسطة الإدراك بالحس، وإما بواسطة التفكير، وبأن الأشياء في الحقيقة هي كما ندرکہا، ويسمى هذان المذهبان مذهب اليقين؛ نظراً لتيقنهما بإمكان المعرفة.

ويعارض مذهب اليقين مذهبان آخران يكونان نظامين من نظم الفلسفة، ويتعلقان بمسألة إمكان المعرفة وحدودها: أحدهما مذهب الشك، والآخر مذهب النقد، فمذهب الشك يشك فحسب، وينكر إمكان المعرفة وقدرة الإنسان عليها، ويمسك عن إبداء أي رأي، ويقابله مذهب النقد؛ فهو لا بد من أن ينكر ببساطة، ويشك من غير تعليل، ينقد ويبحث في كيف نشأت المعرفة كما يبحث في حدودها.

رأى النقاد — أصحاب مذهب النقد — أنفسهم أمام مسألتين لا تحل ثانيتهما إلا بحل أولهما، فقبل أن يبحثوا في منبع المعرفة وأصلها قالوا: يجب أن نبحث في حدود المعرفة ويقام البرهان على إمكانها، وبعد أن تعرف الشروط التي بها تحصل المعرفة يمكن للإنسان أن يعرف ما يمكن إدراكه بهذه الشروط. (فلكنبرج ٣٢٢).

وإننا نذكر كلمة مجملة في تاريخ نشوء نظرية المعرفة (إيستمولوجيا)، ففي عصر الفلسفة القديمة كان السوفسطائيون أول من أثار البحث في المعرفة، ومهدوا السبيل

للعقليين والتجريبيين، وفيها بحث الإيليون وأفلاطون وأرسطو، وفيها بحث الرواقيون والشكاك والأبيقوريون، وفي العصور الحديثة كانت هذه المسألة في مقدمة المسائل عند البريطانيين وغيرهم من الممالك الأوروبية في القرن السابع عشر، فكان للعقليين نفوذ كبير في ممالك أوروبا غير بريطانيا بما وضعه ديكارت ١٦٥٠، وسبينوزا ١٦٧٧، وليبنتز ١٧١٦، وولف ١٧٥٤. أما الباحثون البريطانيون: بيكون ١٦٢٦، وهوبز ١٦٧٩، ولا سيما جون لوك ١٦٣٢-١٧٠٤ فكانوا تجريبين، وقد أدت أبحاث لوك التجريبية إلى مذهب الشك الذي وضعه هيوم ١٧٧٦ في إنجلترا، كما أن بحث هيوم كان باعثاً قوياً «لكانت» على أن يرقى مذهبه النقدي، وكما قيل: «ينبئه من نومه اليقيني.»

هوامش

(١) يعني بالتأمل Reflection ملاحظة العقل لأعمال نفسه.

(٢) قال بروتاغوراس — رأس السوفسطائية: إن الإدراك بالحس هو المصدر الوحيد للمعرفة، ومع ذلك فهذا الإدراك إنما يعرفنا ظاهر الشيء فقط لا حقيقة الشيء نفسه، ومن أجل هذا كان كل رأي ينشأ عن الإدراك بالحس صحيحاً عند المحس وحده، بل صحيحاً في لحظة واحدة، وهي اللحظة التي حصل فيها الإدراك، أما الصحة العامة المطلقة فلا وجود لها، وإذا كانت معرفة الإنسان لا منبع لها غير الإدراك بالحس، وكان شأن الإدراك ما ذكرنا؛ كانت معرفة الإنسان لا يوثق بصحتها، وقد سلم أفلاطون بهذا الرأي، وهو أن الإدراك بالحس إنما يكون معرفة وقتية، وعنده أن هذا الإدراك إنما يعرفنا ظواهر الشيء لا حقيقته (ولكن لم يقصر الإدراك على الحس)، وبيننا بروتاغوراس يقول: إن معرفة الشيء لا يمكن أن تنال، إذا بأفلاطون في كتابه ثيتيونوس وتيمايس يقول بإمكان المعرفة، وقال: إن ما يقرب إلى المعرفة هو الرأي الصحيح الذي يستطيع الإنسان أن يبرهن عليه، ويعني أفلاطون بالمعرفة معرفة حقائق الأشياء، فهو في قوله هذا من العقليين (المؤلف).

(٣) الظاهر أنه يريد بالعموم الشمول، فإذا قال العلم: إن زاوية المثلث تساوي قائمتين. كان ذلك عامّاً في كل مكان وزمان، ويريد بالضرورة خضوع ما يحدث في العالم لأسباب تنتجه، فالعلم لا يقول بحدوث شيء اعتباطاً، بل إنما يحدث بناء على قوانين استوجبت حدوثه.